السبعا وزمتا

السبعا وزمتا

صار توفيق مسخرة سوق الغنم هذا الصباح، فلم يكن اهتمامه مثل اهتمام الزبون العادي، لم يهتم بعمر الخاروف مثلا صغيرًا كان أم كبيرا، سمينًا أو ضعيفًا، بل انصرف بقلق إلى قياس ليَّات الخراف بشبر يده.

في بداية الأمر، تسابق السماسرة إلى خدمة هذا الزبون الغريب، فما لبثوا أن اكتشفوا أنه مسطول، فلم يفهموا عليه ماذا يريد، سأله أحدهم عن طلبه بالضبط، فقال:

- بدي خاروف طول ليتو سبع شبار!

فانفجرت الضحكات مبددة كل السماسرة والتجار من حوله.

رغم كل هذه البهدلة والمسخرة وما تلقاه من خرينة السماسرة، فلم ييأس، حتى أنه أمضى كل النهار في البحث من دون أن يجد طلبه! بل إن أطول ليَّة وجدها لخاروف لا تتجاوز الشبرين والنصف.

لكن، أي طلب يطلب؟ سبعة أشبار! هذا يعني على أقل تقدير مترا ونصف المتر، أطول خاروف في كل سوريا لا يتجاوز طوله كله مترا وربعا.

رجع إلى الحارة مكسورًا، نظر إلى السماء ودعا ربه في نفسه:

- يا رب!... شو ساوي يا رب؟... بيجوز ما رح إئدر أوفي الندر اللي ندرتو للنبي هابيل... دستور من خاطرو... يا رب ألف ألف شكر وحمد... عطيتني هـ الصبي على سبع بنات... ألف حمد وشكر لقدرك العالي... بس امهلني... امهلني لدبر راسي.

وكما حسب وجد الشيخ في باحة المجلس جالسا قدام باب القاعة يطرق الأرض بعكازته بإيقاعات متواترة. المجلس هو المكان الذي يرهب منه توفيق ويخشى أن يأتي إليه، كذلك الشيخ صاحب الطبع القاسي الذي يستخدم عكازته في تأديب المذنبين، لطالما نالت من جوانبه تلك العكَّازة. دعا إلى ربه أن يكون رائق المزاج، اقترب منه بعد أن سلم عليه وجلس قدامه:

- شو مشكلتك؟

قال الشيخ ذلك فجأة وبصوت حاد من دون أن يرد على السلام أو يلتفت صوبه، فتراجع توفيق إلى الخلف وقد ظن أن العكَّازة ستضرب بعنف أحد أطرافه، فراح يشرح مشكلته مرتبكا وهو يراقب ارتطام العكَّازة على الأرض، حتى سكت:

- وليش كتر الغلبة؟

تراجع توفيق واضعا يديه أمام وجهه.

- حدا بيعمل عملتك؟! يخرب ديارك شو حمار!!

اعتدل توفيق ولم يتحسب من ضربة متوقعة وغرق في ملابسه، لقد غاب كلام الشيخ في وجه مثل الليمونة، صار متيقنا أن ولده جبر سوف يصيبه مكروه ما، لا سمح الله، فأخذ يرجو الشيخ أن يجد له حلا يضمن سلامة ولده.

فدعا له الشيخ وطلب من الله أن يغفر لهذا الغشيم والحمار ويسامحه لأنه لا يفهم سيئًا من شيء، وطلب منه أن يستعيض عن نذره الأول ويأتي بخاروف كبير ويوزعه كله للفقراء، وسوف يقوم بزيارة توفيق، والقراءة فوق رأس جبر والدعاء له.

ورغم أنه فعل كل ما أراد الشيخ بحذافيره، ورغم دعاء الشيخ لجبر بالسلامة وطول العمر بعد أن رأى بعينه كيف وزع الخاروف كله للفقراء، لم يرتح!

بل إنه نام على تخته وكأنه نائم فوق منقل جمر، فكلما تحرك ولده أو بكى نط بأربعته، مثل المجنون ليرى ما حل به.

قام إلى باب الدار، دخن خمس دفعة واحدة سيكارات، يشعَّل سيكارة من طيز الأخرى، فتجمعت فوق رأسه غيمة من الدخان، لاح من خلالها سكير دخل الحارة، عرفه إنه أبو دياب السأباني، قام ليدخل ثم تراجع، أحب أن ينظر إلى رجل بلا هموم، كان أبو دياب يغني، ويمشي مثل الزيك زاك، فيضحك من دون انقطاع ثم يتابع، جلس توفيق وهو يبتسم، وما كاد أبو دياب يصل حتى طرق بعشرين حائطا جلس بالقرب منه وعانقه من رقبته وقبله. صار يحكي عن نكتة قديمة وبايخة حكاها أحد رفاقه في الخمارة، وكر في ضحكة طويلة طويلة، ما قطعها إلا ضحكة توفيق المجاملة والقصيرة:

- شو بنا أبو جبر؟... لا يكون بدك تفئس لنا السكرة؟.... ولك شو باك مهموم؟!!...

فما وجد نفسه إلا وهو يحكي عن قلبه المحرق، حكى كل شيء حتى بكى. تناول أبو دياب بطحة العرأ من جيبه الداخلي فتحها ومدها صوبه:

- طول بالك أبو جبر؟!... استغفر ربك وخد لك شفطة... ولك خود هاد العرأ كاسرو جوزيف خود.

أخذ بطحة العرأ، نظر إليها ثم شرب، مع أنه تاب عن الكحول من عشر سنوات، أجبره أبو دياب على الضحك:

- ولك شو مفكر؟... أللّه ما عندو شغلة غيرك؟... هي أنا، ولك عامل السبعا وزمتا؛ بسكر وبحشش وبنيك شراميط... مو مخلي شرموطة مو نايكها... أللّه ما عم بيئرب عليي... بعدين قلة حرامية ونصابن وقتالين قتلة بهَـ البلد، ولك عمي قوم... قوم نام.. فأست لي سكرتي تلحس طيزي.

جاء إلى المحل متأخرا ثلاث ساعات، أول مرة يتأخر في كل حياته، مع ذلك، فقد كان راضيًا كل الرضا، وزع مكافآت سخية على الصنايعية من دون سبب، وعمل بنشاط في الأيام التالية، إلا أنه أهمل شيئا ما بسبب اهتمامه الزائد بولده جبر.

جاءت الأيام ومرض ولده، لم يأت إلى المحل إلا بعد الظهر، كان مهموما جدًا، وكاد يفقد يده لما سها وهو يعمل على شلة الخشب، مع أن الطبيب قد طمأنه كثيرا في الليلة الماضية على صحة الولد السليمة والقوية فلم ينم جيدا البارحة، كان مرهقا للغاية من هذا النهار الطويل وما لبث أن وضع رأسه على المخدة حتى غفا وصار يشخر، فشاف في منامه رجلا ضخما بطول عشرة أمتار يلبس البياض الناصع ووجهه يضيء، قال له:

- توفيق!.. يا توفيق!.. بعدك ما وفيت الندر يا توفيق!... بعدك ما وفيت الندر يا توفيق... بعدك ما وفيت الندر.....

نطَّ من التخت بأربعته وصرخ صرخة نبهت زوجته أمال من نومها، وأخذ يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم وهو يغير ملابسه بسرعة، ثم خرج من دون أن يجيب على امرأته بكلمة.

لم يكن ذاهبا إلى مكان محدد، لكنه لن يعود قبل أن يجد حلا لمشكلته بأي وسيلة كانت! لكن، في هذا الليل؟ وأين؟

كان قد وصل إلى رأس الحارة عندما لمعت الفكرة في رأسه؛ أبو دياب السأباني! لا يوجد غيره، إنه هو، هو من جعله كسلانا لا يبحث عن حل لمشكلته، هو وحده، وعليه أن يجد حلا. لكن، أين يجده في هذا الليل؟! لا بد أنه في خمارة جوزيف.

كان مجيء توفيق قد أخرج جوزيف من ورطة؛ لقد انتهى الوقت المسموح له أن يفتح خمارته، ولا يكاد الزبائن المداومون ينتهون أحاديثهم وضحكهم العالي، وزاد صراخهم وضحكهم وصول رفيقهم القديم، إلا أنهم انشغلوا في أحاديث جانبية لما اصطدموا بوجهه العابس، قرَّب من أذن أبو دياب وهمس:

- أبو دياب.. عاوزك.

- لعيونك أبو جبر، وصلت.. ومحلولة كمان... روء، و روِّءنا!

رد عليه وهو يجلسه ويربت على كتفه ولم يقبل أن يكلمه في الموضوع أو يخرج معه قبل أن يأخذ كأسا، فشرب، وشرب الجميع بصحته، وبسرعة امتزج معهم وراح يضحك، حتى كاد ينسى همه.

قال له بأنه سيحل له مشكلته، شرط أن يعطيه معلاء الخاروف وقنينة كبيرة من العرأ، ولما وافق توفيق من دون أخذ ورد، طلب منه أن يدخل وينام.

لم يطل نوم توفيق، فقد قام من الفجر، وراح مباشرة إلى سوق الغنم، فما لبث السماسرة أن ابتعدوا عنه، ولكنه اشترى خاروفا كبيرا في النهاية، وفي طريق العودة اشترى ثلاث قناني عرق كبيرة، ربط الخاروف في المدخل وطلب من أمال أن تضع القناني في الداخل، ثم خرج مباشرة.

نظرت إلى توفيق ثم إلى ما يحتويه الكيس، فقالت في نفسها "جن الرجل". بينما تجمعت البنات حول الخاروف وصرن يلعبن به.

دخل أبو دياب واستمر إلى أرض الديار حيث عمود عرشية العنب:

- هاد العمود منيح... توفيق... هات الخاروف واربطوا بهـ العمود.

ذهب توفيق مباشرة من دون أن يفكر

- وإنتي روحي جيبي الولد لهون...

نظرت إليه أمال باستغراب فصرخ بوجهها

- اتحركي!

ذهبت أمال إلى أوضة المعيشة في اللحظة التي جلب فيها توفيق الخاروف وربطه بالعمود.

- منيح هيك... نيم الخاروف

قلب الخاروف على الأرض ووضع عليه ركبته، فصار يمعي، لما أتت أمال بالولد وهي تعانقه وتنظر خائفة، إلى الخاروف المسكين:

- ناوليني الولد!

ترددت أمال ثم نظرت إلى توفيق وهي تعطيه إياه، فراح يبكي، ثم طلب منها أن تساعد توفيق في تثبيت الخاروف، وطلب من البنت أن تأتي وتمد ليَّة الخاروف ففعلت ثم انحنى وبيده الولد:

- بسم الله الرحمن الرحيم... شوف توفيق.

نظر بغباء إلى أبو دياب الذي مد كف الولد وراح يقيس ليَّة الخاروف بشبر الولد:

- واحد، تنين، تلاتة... إلت لي كام شبر بدك؟

- سبعة!

- وهي أربعا، وهي خمسة، وهي ستة، وهي السبعا وهي زمتا!

ثم وقف أبو دياب وهو ينظر إلى توفيق ويضحك ضحكة طويلة عريضة، لتظهر أسنانه المقلوعة، وهو يحمل جبر الذي ألفه وصار يلعب بشاربه، والكل متجمد ينظر إليه ولا يقوى على الحركة.